

المقامات والأحوال عند الصوفية

دكتور

عبد العزيز موسى الدبور

أستاذ مساعد – جامعة الأزهر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ﴿ ...... رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٤ ﴾ سوره الممتحنة : ٤

وبعد

فبحثي هذا الذي جاء عنوانه :

(المقامات والأحوال عند الصوفية)

يشتمل على ثلاثة مباحث جاءت كالتالي :

المبحث الأول : (مفهوم المقام والحال عند الصوفية)

تناولت فيه المسائل التالية:

مفهوم المقام والحال : في اللغة .

مفهوم المقام والحال : في القرآن الكريم.

مفهوم المقام والحال : في اصطلاحات الصوفية.

المبحث الثاني : (اختلافات الصوفية حول المقامات).

تناولت فيه اختلافهم في المقامات والأحوال :

- من حيث العدد والترتيب.
- من حيث الفرق بينهما من ناحية الدوام وعدم الدوام والاكتساب وعدمه.
- ومن حيث تحديد المقامات والأحوال عند بعضهم

المبحث الثالث : (المقامات والأحوال بين الرفض والقبول)

عرضت فيه نماذج لنقود بعض العلماء للمقامات والاحوال عند الصوفية وأخرى لقبولها والإشادة بها .

وأسأل الله تعالى العون والتوفيق .

المبحث الأول

(مفهوم المقام والحال عند الصوفية)

في هذا المبحث أتناول مفهوم المقام والحال في المسائل التالية:

- في اللغة .
- في القرآن الكريم .
- في اصطلاحات الصوفية.

أولاً : المقامات والأحوال في اللغة:

١. **المقامات في اللغة :**

المقامات في اللغة : جمع مقام

والمقام بالفتح : بوضع القيام . وبالضم : موضع الإقامة.

قال أبو البقاء الكفوي :

- **والمقام بالفتح** : من قام يقوم وهو موضع القيام والمراد المكان وهو من الخاص الذي جعل مستعملاً في المعنى العام فإن موضع قيام الشيء أعم من أن يكون قيامه فيه بنفسه أو بإقامة غيره ومن أن يكون ذلك بطريق المكث فيه أو بدونه.
- **والمقام بالضم** : من أقام يقيم وهو موضع الإقامة أي موضع إقامة الغير إياه أو موضع قيامه بنفسه قياماً ممتداً.

والفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع بضم الميم .

ومعنى (المقام) : مكان فيه القيام لشيء ما أو ما ذات فيه القيام ولذلك صح أن يجري عليه الصفات ولم يصح أن يكون للغير وكان في عداد الأسماء دون الصفات.

و (المقام) : يقال للمصدر والمكان والزمان والمفعول لكن الوارد في القرآن هو المصدر(١).

٢. الحال في اللغة:

الحال : ما كان الإنسان عليه من خير أو شر يذكر ويؤنث . والحال يطلق على الزمان الحاضر وعلى المعاني التي لها وجود في الذهن لا في الخارج كعرضية العرض وجسميه الجسم وإنسانية الرجل والمرأة فإنها مقومة لا قائمة.

والحال يطلق على المعاني التي لها وجود في الخارج كالعدد ... .

والحال يطلق على المعاني الخارجية التي يصدر عنها الفعل والانفعال كالحلم والشجاعة أو واضادهما.

والحال يختص به الإنسان وغيره من أموره المتغيرة في نفسه وجسمه وصفاته(٢).

بمعنى ما يختص به الإنسان من أموره المتغيرة الحسية والمعنوية(٣).

---

(١) الكليات معجم في المصطلحات والفروق العربية صـــ٨٢٧.

(٢) نفسه صـــ٣٧٤.

(٣) أنظر : المعجم الوجيز صـــ١٧٩.

ثانياً : لفظ (المقام) في القرآن الكريم:

ورد لفظ المقام في القرآن الكريم بمعان متفرقة:

والمقام إما أن يراد به أمر معنوي وإما أن يراد به أمر حسي.

- **فمن ورود كلمة مقام بمعناه المعنوي :**

قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾[١].

وهو مقام الشفاعة العظمى في فصل القضاء.

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [٢].

أي وما منا ملك الإله مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعداها فمنا الموكل بالأرزاق ومنا الموكل بالآجال ومنا من يتنزل بالوحي ولكل منزلته من العبادة والتقريب والتشريف[٣].

وقوله تعالى : وَأَمَّا ﴿ مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾[٤]

أي وأما من خاف عظمة ربه وجلاله وخاف مقامه بين يدي ربه للحساب وخاف عذابه ووعيده.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٩.

(٢) سورة الصافات الآية ١٦٤ .

(٣) أنظر صفوة التفاسير جـ٣ صـ٤٦.

(٤) سورة النازعات الآية ٤٠ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [١]

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾[٢]

- **<u>ومن ورود كلمة (مقام) بمعناه الحسي :</u>**

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾[٣]

مقام إبراهيم : هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة.

- **<u>كما يذكر (المقام) في القرآن الكريم بمعنى الإقامة السيئة:</u>**

كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾[٤]

أي بئست جهنم منزلاً ومكان إقامة .

قال القرطبي : المعنى بئس المستقر وبئس المقام[٥].

- **<u>ويذكر (المقام) أيضاً بمعنى الإقامة الحسنة :</u>**

---

(١) سورة الرحمن الآية ٤٦.

(٢) سورة إبراهيم الآية ١٤.

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٥.

(٤) سورة الفرقان الآية ٦٥ : ٦٦ .

(٥) القرطبي جـ١٣ صـ٧٢

كما في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦ ﴾ (١)

أي ما أحسنها مقراً وأطيبها منزلاً لمن اتقى الله عز وجل .

وهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ ﴾(٢)

يعني أنهم يوم القيامة في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكاره وهو الجنة.

ثالثاً : مفهوم (المقام) و (الحال) عند الصوفية:

أولاً: مفهوم (المقام) عند الصوفية:

لقد اجتهد الصوفية في تحديد مفهوم المقامات وهي المكاسب التي يحصل عليها العبد أثناء رحلة مجاهداته وإخلاصه وطاعته لله تعالى.

قال أبو نصر السراج الطوسي (ت٣٧٨هـ) عن مفهوم (المقام): "فإن قيل ما معنى المقامات؟ يقال معناه : مقام العبد بين يدى الله

(١) سورة الفرقان الآية ٧٥ : ٧٦.

(٢) سورة الدخان الآية : ٥١ : ٥٢.

عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله عز وجل ...."[١].

وقال : سئل أبو بكر الواسطي رحمه الله عن قول النبي-ﷺ-: (الأرواح جنود مجندة)[٢] قال: مجندة على قدر المقامات.

والمقامات مثل : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل"[٣].

وقال الإمام القشيري (ت٤٦٥ هـ) عن مفهوم (المقام) : "والمقام : ما يتحقق به العبد منازلته (أي بنزوله فيه وبما اكتسب له) من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تَطلُّب ومقاساة تكلف.

فمقام كل أحد : موضع إقامته عند ذلك (أي عند اكتسابه ما يوصل إليه) وما هو مشتغل بالرياضة له"[٤].

فالقشيري يرى أن (المقام) عمل كسبي يقوم به العبد ويلتزم به ولا يتجاوزه إلى مقام آخر إلا إذا استوفى شروط إقامته به – كما سيأتي – .

وقال الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي (٥٦٥ – ٦٣٨هـ) : "المقام : عبارة عن استيفاء حقوق المراسم على التمام"[٥].

---

(١) اللمع صـ٦٥.

(٢) صحيح مسلم كتاب الأدب.

(٣) اللمع صـ٦٥.

(٤) الرسالة القشيرية جـ١ صـ٤٠٢. وانظر : الجرجاني: التعريفات صـ٢٨٩.

(٥) شرح معجم اصطلاحات الصوفية صـ١٢ .وانظر : الكاشانى :اصطلاحات الصوفيةصـ١٠٣

يعني أن المقام هو مقام العبد بين يدي الله تعالى في العبادات وسائر الطاعات والتي قام بها العبد على وجه التمام أي باستيفاء حقوق المراسم الشرعية.

فالصوفي يتوجه بكامل إرادته بالكسب والجهد للانتقال من مقام إلى مقام فدرجته ينالها بإرادته المكتسبة وتطلب(أي مع الموهبة) إلى أن يكمل العبد فيه بخلاف الحال – كما سيأتي – .

قال الإمام الغزالي : لابد لكل مقام من علم وعمل وحال فالمقام يثمر علماً والعمل يثمر حالاً لأن حركات الأجسام تابعة لحركات القلوب وحركات القلوب جارية بحركات الأجسام(١).

نستخلص مما سبق :

- أن الصوفية استعملوا كلمة (مقام) لتدل على مرحلة من مراحل التعمق في العبادة وهذا يعني أن الصوفية استعملوا كلمة (مقام) بمعناه المعنوي فالسالك عندهم يبدأ بمقام (التوبة) مثلاً وهو مقام معنوي ثم قد ينتقل إلى مقامات أخرى كالتوكل والصبر والشكر ونحو ذلك وكلها من المقامات المعنوية(٢).
- إن المقام نعت للعبد يتجدد له من العمل بالآداب الشرعية مع الاجتهاد الدائم والعناية الإلهية فمن لم يكن عنده حسن اتباع

---

(١) أنظر: الرسالة القشيرية جـ١ صـ٤٠٢ هامش .

(٢) أنظر : د/ أحمد بن محمد بناني موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ١٠٧ – ١٠٨ بتصرف.

للأخلاق المحمدية كأن أخل بالإخلاص والمراقبة والمجاهدة السرمدية أو غير ذلك مما هو معلوم لذوي الإيمان والراوية فلا يتصف بالمقام إذ هو مرتبه عليه فمقام الشخص ما وفقه الله تعالى من أنواع العبادة والقرب وشغل قلبه به في كل وقت من الفلاح والأدب(١).

فالصوفية يذهبون إلى أن الطريق لا يكمل ولا يؤدي الغرض منه ولا يحصل الصوفي على ضالته إلا بعبور هذا الطريق والوصول إلى نهايته فلا يصح أن يقف عند مقام أو مقامين بل لابد للصوفي أن يتخطى المقامات الواحد تلو الآخر حتى يصل إلى غرضه الاقصى وهو المنزلة الروحية.

قال أستاذنا الدكتور/ عبد الحليم محمود – رحمه الله – في ذلك:

"المقامات هي المنازل الروحية التي يمر بها السالك إلى الله تعالى فيقف فيها فترة من الزمن مجاهداً في إطارها حتى يهيئ الله سبحانه وتعالى له سلوك الطريق إلى المنزل الثاني لكي يتدرج في السمو الروحي من شريف إلى أشرف ومن سام إلى أسمى وذلك مثلاً كمنزل (التوبة) الذي يهيئ إلى منزل (الورع) ومنزل (الورع) يهيئ إلى منزل (الزهد) وهكذا حتى يصل الإنسان إلى منزل (المحبة) وإلى منزل (الرضى).

---

(١) مختصر كتاب أعذب المسالك المحمودية إلى منهج السادة الصوفية للشيخ محمود خطاب السبكي صــ٢٣٣.

وهذه المنازل لا بد لها من جهاد وتزكية ولذلك يقولون عنها أنها مكتسبة أنها اجتهاد في الطاعة ومواصلة في التسامي في تحقيق العبودية لله سبحانه"[١] .

فالصوفي يتوجه بكامل إرادته بالجهد والكسب والجلد والصبر للانتقال من مقام إلى مقام حتى يصل إلى مقام (الرضى) التي نالها بإرادته المكتسبة وهذه سمة مميزة للمقامات.

ثانياً: مفهوم (الحال) عند الصوفية:-

قال الشيخ الطوسي عن معنى الحال : "وأما معنى الأحوال فهو ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار" .

وقال : وقد حكى عنه الجنيد – رحمه الله – أنه قال : الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم.

وقد قيل أيضاً : أن الحال هو الذكر الخفي"[٢].

وقال في موضع آخر: "والحال نازلة تنزل بالعبد في الحين فيحل بالقلب من وجود الرضا والتفويض وغير ذلك فيصفوا له في الوقت في حاله ووقته ويزول وهذا كما قال التجنيد – رحمه الله – .

وعند غيره الحال: ما يحل بالأسرار من صفاء الأذكار ولا يزول فإذا زال فلا يكون ذلك حالاً"[٣].

---

(١) المنقذ من الضلال صـــ١٨٩.

(٢) اللمع صـــ٦٦.

(٣) اللمع صـــ٤١١.

وقال :" وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضات كالمقامات وهي (أي الحال) مثل : المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين وغير ذلك"(١).

وقال القشيري عن معنى (الحال) في اصطلاح الصوفية:

"والحال عند القوم : معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو احتياج"(٢).

والأحوال عنده مثل : القبض والبسط والهيبة والأنس والتواجد والوجد والوجود والجمع والفرق وجمع الجمع والذوق والشرب والفناء والبقاء والغيبة والحضور والصحو والسكر إلى غير ذلك من الأحوال(٣) .

وقال محي الدين بن عربي: "الحال: هو ما يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب فقوله (يرد على القلب) أي من غير تعمد ولا تكسب من صاحبه فهي مواهب ربانية ومنح إلهية من حكمها ((أي أثرها)): القبض والبسط والشوق أو القلق أو الخوف إلى غير ذلك من الأحوال النفسانية.

---

(١) نفسه صــ ٦٦ .

(٢) الرسالة القشيرية جــ١ صــ٢٠٦.

(٣) نفسه صــ٢٠٩ وما بعدها.

قال ابن عربى : ومن شرطه : أن يزول ويعقبه المثل وأن يبقى ولا يعقبه المثل فمن أعقبه المثل قال بدوامه ومن لم يعقبه المثل قال بعدم دوامه وقد قيل : الحال : تغير الأوصاف على العبد .

وهذا يعني أن الوارد غير ثابت فقد يذهب ويعقبه المثل وقد يبقى ولا يعقبه المثل فمن أعقبه المثل قال بدوامه ومن لم يعقبه المثل قال بعدم دوامه.

ولذا قالوا : "الحال: تغير الأوصاف على العبد" فإن الأوصاف أحوال يتقلب العبد فيها إما بحكم تجدد الأمثال أو الأضداد[١].

وقال الكاشاني : "الحال: ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمد ولا اجتلاب كحزن أو خوف أو بسط أو قبض أو شوق أو ذوق ويزول بظهور صفات النفس سواء يعقبه المثل أولاً فإذا دام وصار ملكاً يسمى : مقاماً"[٢].

فهذه الأقوال توضح أن المراد بالأحوال عند الصوفية معاني ترد على السالك من غير تكلف منه ولا تعمد خلافاً للمقامات التي هي مراحل من التعمق في العبارة يصل إليها المرء بجهده ومثابرته وهذا هو معنى قولهم: "الأحوال تأتي من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود"[٣].

---

(١) شرح معجم اصطلاحات الصوفية للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي شرح : سعيد هارون عاشور صـــ١٣.

(٢) اصطلاحات الصوفية صـــ٧٨ وانظر : الجرجاني : التعريفات صـــ١١٠.

(٣) القشيري : الرسالة ج١ صـــ٢٠٦ وانظر شبهات التصوف صـــ١٨٠.

فالأحوال : واردات إلهية ترد على قلوب العارفين بواسطة تنوير قلوبهم الناشئ عن دوام الجد والاجتهاد في العبادة مع الإخلاص والمراقبة ولا كسب للعبد فيها وإنما هي مدارج للمطالب من رفيع المقامات فإذا توالت ودامت الأمثال فصارت ملكة كان ذلك مقاماً(١).

فالأحوال مبادئ للمقامات ولذا قيل : إذ دامت الحال صارت مقاماً لصاحبها – كما سيأتي – .

المهم أن (الأحوال) هبات ربانية لا تأتي نتيجة المجاهدات والرياضات كالمقامات وإنما هي عطاء رباني خالص .. لا قدرة للعبد على استجلابها أو بقائها وإذا زالت لا يملك السالك بعمله إعادتها وهي "ما يصل من الله تعالى إلى قلب الإنسان بدون أن يكون له قدرة على رده إذا حضر أو استحضاره إذا غاب"(٢).

قال أستاذنا الدكتور / عبد الحليم محمود عن (الأحوال) :

"أما الأحوال فهي النسمات الروحية التي تهب على السالك فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة تم تمر تاركة عطراً تتشوق الروح للعودة إلى تنسم أريجة وذلك مثل (الأنس بالله) "(٣).

وبعد أن عرضنا لمفهوم (المقام) و (الحال) في اللغة وفي القرآن الكريم وفي اصطلاح (الصوفية) نشير في المبحث التالي إلى أبرز

---

(١) أنظر : الشيخ السبكي مختصر كتاب أعذب المسالك صـــ٢٣٥.

(٢) أنظر الهجويرى كشف المحجوب صـــ٢١٦ و د/ انشاد محمد علي: التصوف الإسلامي صـــ ٧٨.

(٣) المنقذ من الضلال صـــ١٨٩.

جوانب اختلاف (الصوفية) حول (المقامات) و(الأحوال) وتقديم بعض مظاهر هذا الاختلاف مع الإشارة إلى دوافعه وأسبابه.

* * *

□

المبحث الثاني

اختلاف الصوفية حول المقامات والأحوال :

الناظر في المقامات والأحوال عند الصوفية يجد أن بينهم اختلافاً كثيراً حولها وهذا الاختلاف له دوافعه وأسبابه:

وقد جاء اختلافهم في المقامات والأحوال على النحو التالي :

- من حيث العدد والترتيب.
- من حيث الفرق بينهما من ناحية الدوام وعدم الدوام والاكتساب وعدمه .
- ومن حيث تحديد المقامات والأحوال عند بعضهم فما يراه بعضهم حالاً يراه البعض الآخر مقاماً.

وفيما يلي نشير إلى بعض مظاهر هذا الاختلاف ثم نعقب بأسبابه.

أولاً : اختلاف الصوفية في عدد المقامات وترتيبها:

في الواقع أن المقامات والأحوال ليس متفق على عددها وترتيبها عند الصوفية وقد اشار إلى ذلك ابن القيم بقوله: "ولأرباب السلوك اختلاف كثير في عدد المقامات وترتيبها كل يصف منازل سيره وحال سلوكه..."[1].

---

(١) مدارج السالكين جـ١ صـ١٥١.

ويذكر ابن الجوزي إلى أن "أول من تكلم في بلدته في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ذو النون المصري"[(١)].

ونبدأ بـــ أبي سليمان الداراني (ت٢٠٥ أو ٢١٥هـــ) للإشارة إلى تطور مصطلح (المقامات) و (الأحوال) من حيث الترتيب والعدد.

فالداراني قد حدد المقامات في البداية بثلاث : الزهد والورع والرضا وكان يقول إنها ثلاث مقامات لا حد لها.

ويذكر صاحب قوت القلوب أن ابنة سليمان كان يرى أن لهذه المقامات حدوداً: إن من تورع في كل شئ فقد بلغ حد الورع ومن زهد في كل شيء فقد بلغ حد الزهد ومن رضى عن الله في كل شيء فقد بلغ حد الرضا[(٢)].

ولكن ما لبث أبو سليمان الداراني أن وضع لكل مقام من المقامات حداً ولم تعد المقامات عنده ثلاث بل كثرت.

فيقول : وإذا بلغ العبد غاية من (الزهد) أخرجه ذلك إلى (التوكل) فهو ها هنا يتوصل لمقام (التوكل) ويضيف مقاماً رابعاً هو (القناعة) فيقول: القناعة أو الرضا والورع أول الزهد ثم يأتي بعد مقام (الحب).

المهم أن مصطلح (المقامات) وعددها لم يكن قد استقر عنده فهو يستخدم أحياناً كلمة (المقام) وأحياناً يستخدم كلمة (الدرج) كل هذا يؤكد أنه لم يقم بصياغة (المقامات) صياغة منهجية كما نرى هذا

---

(١) تلبيس إبليس صـــ١٨٥.

(٢) أبو طالب المكي : قوت القلوب جـــ٢ ، صـــ ٨٧ .

فيما بعد لدى الصوفية في أواخر القرن الثالث وخلال القرن الرابع كما

لا نرى لديه أيضاً تمييزاً بين المقامات والأحوال[١].

ويرى الحكيم الترمذي (ت٣٢٠هـ) أن مقامات الأولياء وطبقاتهم أربعة جاءت على الترتيب التالي : طبقة الصادقين تتلوها طبقة الصديقين فطبقة المقربين ثم طبقة المنفردين.

وتتصل هذه الطبقات بسلسلة من (المقامات) بحيث لو صرفنا النظر عن أسوار الطبقات لوجدنا التسلسل في هذه المقامات يسلم من حلقة إلى حلقة أو من مقام إلى مقام من أول مقام من مقامات الأولياء حتى نصل إلى منتهى هذه المقامات.

لكن هنالك اعتبارات خاصة تميز كل مجموعة من هذه المقامات بحيث يمكن جعلها مقامات لطبقة خاصة من هذه الطبقات أو أن هناك اعتبارات خاصة تجعل كل طبقة من هذه الطبقات تتميز بنوع من أنواع هذه المقامات.

فالصادقين هم الذين اتجهوا بكل مجهودهم لكي يبذلوا نفوسهم خالصة لربهم فحرموها كل مشيئة وكل إرادة ابتداء من مشيئة الحرام إلى مشيئة الطاعات وظلوا هكذا يقيدون نفوسهم في انتظار ما يخرج لهم من المشيئة الإلهية.

وهذا الجهد الذي يبذلونه ليس جهداً بدنياً ولكنه جهد قلبي بالدرجة الأولى هو سعي إلى الله بالقلوب يقطع فيه مرحلة بعد مرحلة

---

(١) أنظر : د/ علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ٣ ، صـ٣١٢.

ويزيل فيه من عقاب نفسه عقبة بعد عقبة ويعالج من عيوب النفس وآفاتها ما يزيل عنها شعور التملك والاقتدار ويطبعها بطابع الذل والافتقار فإذا بلغ منه الجهد ولم يستطع أن يصل إلى مبتغاه. استغاث بربه استغاثة المضطر ودعاه ليكشف عنه السوء فإذا رحمه ربه وأجاب دعاءه نقله في طرفة من محل الصادقين ببيت العزة إلى محل (الصديقين) بالبيت المعمور ... فهذه طبقة (الصادقين) والمراحل التي يجتازونها هي المقامات الخاصة بهم.

فإذا انتقلوا إلى محل (الصديقين) فهذه طبقة أخرى ذات سمات ومراتب أرقى وهي مع ذلك لم تتحرر كلية من آفات النفس ولكنها وضعت في حراسة الحق يحول بينهم وبين نفوسهم بعضهم بشرط وفائه في لزوم المرتبة وعدم مغادرتها إلا بإذن وهؤلاء أولياء الصدق والبعض الآخر بغير شرط وهم أولياء المنة الذين اجتباهم الله بمشيئته وجذبهم من نفوسهم جذباً.

حتى إذا أصبحت نفوسهم سلماً ولم يعد فيها منازعة بعد أن قطعت ما قدر لها من مقامات أصبحوا من (المقربين) ذوى المجالس وعلى قدر قوة اليقين ونفاذ الإيمان تتفاوت الأنوار وتتفاوت الحظوظ حتى يكون أكثرهم حظاً وأقربهم قربة وأصفاهم قلباً هو الذي ينال مجالس (المنفردين) في ملك الملك بين يديه يناديه كفاحاً ويلج مجلسه سماحاً فهو من المقربين المنفردين[١].

---

(١) د/ عبد الفتاح بركة: الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية جـ٢ صـ٢٥٣ : ٢٥٥.

والعامل المشترك بين هذه المقامات كلها مع اختلاف مقاماتها هو عقد (الايمان) واتجاه النية والإرادة فهي التي تستتر وراء كل عمل وتعطي له قدره وقيمته وتهيء له محله ورتبته .... ولذلك تتفاوت مقامات الأولياء وتتفاوت طبقاتهم على الرغم مما يبدو من أعمالهم وسلوكهم " فكلما ازداد القلب استنارة بما عقد كان النطق به أنور وعند الله أعظم خطراً وقدراً وكان الوفاء به أرضى وأخلص وفي الميزان أثقل"(١).

ولقد أفاض الحكيم الترمذي في هذا المعنى في كثير من كتبه ورسائله ويكفي أن نشير إلى مدى الأهمية التي يعلقها على النيات والإرادات من اعتباره أن الأعمال – على وجه العموم – توضع في الخزائن ليوم العرض أما النيات فتعرض بين يدي الله تعالى ... وهي ملاحظات دقيقة تستر خلفها ملاحظات أكثر دقة ولطفاً ولكنها – على كل حال – كافية لوضع صورة إجمالية عن مدى التفاوت بين المقامات التي تحل فيها القلوب.

ففي ثنايا هذه الطبقات – التي ذكرها الحكيم – تتفاوت المقامات فليس كل أصحاب طبقة على مستوى واحد بل إننا لو دققنا النظر لوجدنا أن هناك تفاوتاً قائماً في المقام الواحد ولكن هذا التفاوت في داخل المقام الواحد قد يدق إلى درجة يصعب ويطول تصويرها أو التعبير عنها إلا عند أصحابها ولذلك يكتفي بذكر المنازل والمقامات

(١) نفسه جـ٢ صـ٢٥٥ نقلاً عن شفاء العلل.

كعلاقات بارزة في مراحل السير في طريق الولاية إلى الله تعالى[١].

وعلى الرغم من أن صورة المقامات لم تكن قد تبلورت واستقرت واتخذت تحديداً واضحاً في هذا العصر الذي كان فيه الحكيم الترمذي .. فإننا نرى في تصوير الحكيم لهذه المقامات محاولة باكرة وناضجة بل إنها لتلقي ضوءاً قوياً على الصورة التي تحددت لها بعد أن يعطيها لوناً وتحديداً جديداً.

وللحكيم تقسيم آخر للمقامات يتبع فيه الآية الكريمة : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[٢]

فيذكر سبعة مقامات لكنه يعلق عليها بأنها خاصة بهؤلاء الذين يتعاملون مع ربهم معاملة التجار وأن هنالك طائفة أخرى "رموا أنفسهم بوسع اليدين وملء الساعدين من خلف أقفيتهم ثم لم يلتفتوا إليها وألقوا بأيديهم إلى الله سلماً" .

فإذا أردنا أن نعرف صورة واضحة لمقامات الطبقة الأولى من الأولياء وهم (الصادقون) عند الحكيم لوجدناه قد أفرد لها رسالة خاصة بعنوان (منازل العباد من العبادة) ويبدو من مطلعها أنه

---

(١) نفسه جـ٢ صـ٢٥٦ – ٢٦١ بتصرف .

(٢) سورة التوبة الآية : ١١٢.

كانت تثور بين الناس مناقشات في شأن هذه المقامات وفي تقعيدها وإرساء قواعدها على أسس من الشرع قال الحكيم : "أما بعد فإنكم سألتموني وصف منازل العباد من هذا الدين وأن أذكر لكم على كل منزلة منها من طريق الكتاب المنزل والخبر المأثور ما يكون شاهداً على وصفي".

ثم يسرد لنا الحكيم سبعة منازل يفصل بينها ويصف كل واحد منها لكنه لا يعطي لها كلها بل يبدأ بـــ(التوبة) ثم (الزهد) ثم (بعداوة النفس) ثم (بأهل المحبة والقربة) ثم (بقطع الهوى والتطهير منه) وهذه هي المنازل التي أعطى لها أسماءها أما المنزلتين الأخيرتين فقد ذكرهما بالوصف ولعلنا نستطيع أن نعطي لهما اسمين من وصفه لهما هما : (الخشية) ثم (الحرية) لأنه يصفهما بقوله : "وأما المنزلة السادسة فهم الذين وصفهم الله في تنزيله فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (١) وأما المنزلة السابعة : فهم قوم لما أوثقوا الهوى وهم منه على وجل نظر الله إليهم وقد استفرغوا مجهودهم في ذاته فأحبهم وصح لهم تفويضهم إليه فكفاهم مئونة الهوى وبلغوا غايتهم من التطهير من الهوى فتجلى لهم من عظمته ما صعق الهوى واندكت الشهوات فصارت كالهباء المنبث تفرقاً وتلاشياً".

وقد وصف أهل المنزلة السابعة أيضاً بقوله : "إن لله عباداً قطعوا هذه العقبة صارخين إليه مستغيثين به بين جور الهوى وحياته فيهم

(١) سورة المؤمنون الآية : ٥٧ .

... فقد يبست عروقهم وسكنت حركاتهم وانقطعت طلباتهم ووقفوا بين يدي مليكهم ينتظرون نوائب أموره يمرون فيها في أسرع من السهم في بشر وطلاقة من أهوائهم ونفوسهم التي قد ماتت ثم حييت فهم أحرار كرام محرري الرحمن حررهم من عبودية الهوى".

ونستطيع أن نجد بين هذه المنازل أو المقامات التي أوردها الحكيم الترمذي اتساقاً وتناسباً ما عدا المنزلة أو المقام الرابع الذي أطلق عليه (منزلة أهل المحبة والقربة) فمن المفروض – حسب ترتيب مقامات الأولياء – أن منازل أهل القربة لا ينالها الصادقون إلا بعد أن ينتقلوا إلى مرتبة (الصديقين) فينزلون حينئذ منازل أهل القربة حيث يقومون في مقامات أخرى تعدهم لدرجات الوسائل فوق أن وجود هذه المنزلة بين منزلة (عداوة النفس) وهي المنزلة الثالثة ومنزلة (قطع الهوى والتطهير منه) وهي المنزلة الخامسة لا يوحي بأن هذا هو مكانها الطبيعي(١).

لكننا يكفينا في هذا المجال أن نوضح أن الحكيم الترمذي رغم أن صور المقامات لم تكن قد تبلورت واستقرت واتخذت تحديداً واضحاً في عصره فإن تصويره لهذه المقامات على النحو السالف محاولة باكرة وناضجة ويكفي أنه قد وضع للسكاكين على طريق الصدق سبعة مقامات قد تتفق أو تختلف مع ما استقر عليه الأمر بعد ذلك عند غيره من الصوفية ولكنها تتناسب تماماً مع ترتيب نظريته في الولاية.

---

(١) نفسه جـ٢ صـ ٢٦٣ وما بعدها.

وأن نلاحظ أن المنزلة السابعة هي نفس الوصف الذي يصف به الصادق عندما ينتهي من بذل غاية مجهوده ويبسط يد المضطر إلى الله فينقله من مرتبة (الصادقين) إلى مرتبة (الصديقين) ولذلك نجده مقاماً شاملاً يشتمل في ثناياه على كافة المراتب والمقامات التالية له في طبقة (المقربين) و (المنفردين).

وفي ضوء ما تقدم يمكننا ملاحظة ما يلي:

١. **أن المقامات في عصر (أبي سليمان الداراني) و (الحكيم الترمذي) على سبيل المثال – لم تكن قد تبلورت واستقرت واتخذت تحديداً واضحاً:**

فالداراني قد حدد المقامات على النحو التالي: الزهد – الورع – الرضا – التوكل – القناعة – الحب.

- والملاحظ أنه لا يميز بين المقامات والأحوال – كما أشرنا–.

والحكيم الترمذي جاءت المقامات عنده كالتالي : التوبة – الزهد – عداوة النفس – أهل المحبة والقربة – قطع الهوى والتطهير منه – الخشية – و (الحرية).

فالمقامات من حيث العدد والترتيب لم تكن قد صيغت صياغة منهجية كما حدث بعد ذلك.

ففي أواخر القرن الثالث وخلال القرن الرابع وما بعده تم صياغة المقامات صياغة منهجية خاصة من حيث العدد والترتيب مما يدل على أن هناك تطوراً قد طرأ على المقامات في هذه الناحية.

فــ(الطوسي المتوفي: ٣٨٧هــ) : قد حصر المقامات في سبعة جاءت حسب الترتيب التالي : التوبة – الورع – الزهد – الفقر – الصبر – التوكل – الرضا[١].

و(أبو طالب المكي المتوفي: ٣٨٦هــ) : قد حصرها في تسعة جاءت على النحو التالي : التوبة – الصبر – الشكر – الرجاء – الخوف – الزهد – التوكل الرضا – المحبة[٢].

و(السهروردي المتوفي :٦٣٢هــ) : قد حصرها في عشرة جاءت على الترتيب التالي : التوبة – الورع – الزهد – الصبر – الفقر – الشكر – الخوف – الرجاء – التوكل – الرضا[٣].

- ونلاحظ أن كثيراً من المقامات عند الطوسي ومن جاء بعده لا نجدها عند الدراني ولا عند الحكيم الترمذي مما يؤكد تطور المقامات – كما أشرنا – .

٢. **<u>كما نلاحظ اختلاف الصوفية في عدد المقامات وترتيبها:</u>**

---

(١) اللمع صـــ٦٥.

(٢) قوت القلوب جـــ١ صـــ٣٦٤.

(٣) عوارف المعارف بها مش الإحياء للغزالي للغزالي جـــ٤ صـــ٣٣٥ وما بعدها .

<u>فأما من حيث العدد</u> : – فعلى سبيل المثال – نجد الطوسي قد حصرها في سبعة والمكي حصرها في تسعة والسهروردي حصرها في عشرة وهكذا.

ونجد مقام (الورع) ومقام (الفقر) عند الطوسي ولا نجدهما عند المكي كما نجد عنده مقام (الشكر) و (الرجاء) و (الخوف) و (المحبة) ولا نجد ذلك عند الطوسي .

ونجد مقام (الورع) عند السهرودي ولا نجده عند المكي كما نجد عنده مقام (الشكر) و (الخوف) و (الرجاء) ولا نجده عند الطوسي.

<u>وأما من ناحية الترتيب</u> : فنجد الطوسي يجعل مقام (الزهد) قبل (الصبر) و (التوكل) بعد (الصبر) والمكي يجعل مقام (الصبر) قبل (الزهد) و (التوكل).

وعند السهرودي جاء مقام (الفقر) بعد (الصبر) بخلاف الطوسي الذي جعل مقام (الصبر) قبل (الفقر) وهكذا.

٣. **<u>كما نلاحظ أن المقام الواحد</u>** أحياناً يندرج فيه أكثر من مقام ولا يكون السالك موفياً لذلك المقام إلا باستجماع جميع المقامات المندرجة فيه.

قال ابن القيم: "ومن المقامات ما يكون جامعاً لمقامين ومنها ما يكون جامعاً لأكثر من ذلك ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه:

فمقام (التوبة) : جامع لمقام : (المحاسبة) ومقام (الخوف) لا يتصور وجوده بدونهما.

ومقام (التوكل): جامع لمقام : التفويض والاستعانة والرضى لا يتصور وجوده بدونهما.

ومقام (الرجاء): جامع لمقام : الخوف والإرادة.

ومقام (الخوف): جامع لمقام: الرجاء والإرادة.

ومقام (الإنابة): جامعة لمقام: المحبة والخشية لا يكون العبد منيباً إلا باجتماعهما.

ومقام (الإخبات): له جامع لمقام: المحبة والذل والخضوع لا يكمل أحدهما بدون الآخر.

ومقام (الزهد): جامع لمقام: الرغبة والرهبة لا يكون زاهداً من لم يرغب فيما يرجو نفعة ويرهب مما يخاف ضرره.

ومقام (المحبة): جامع لمقام: المعرفة والخوف والرجاء والإرادة فالمحبة معنى يلتئم من هذه الأربعة وبها تحققها.

ومقام (الخشية): جامع لمقام: (المعرفة بالله) والمعرفة بحق عبوديته فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ...... ﴾ (١)

فالعلماء به وبأمره هم أهل خشية قال النبي – ﷺ – : (أنا أعلمكم الله وأشدكم له خشية)(٢).

ومقام (الهيبة) : جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

---

(١) سورة فاطر الآية : ٢٨.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الإيمان ومسلم كتاب الصيام.

ومقام (الشكر) : جامع لجميع مقامات الإيمان ولذلك كان أرفعها وأعلاها وهو فوق الرضا وهو يتضمن الصبر من غير عكس ويتضمن التوكل والإنابة والحب والإخبات والخشوع والرجاء فجميع المقامات مندرجة فيه لا يستحق صاحبه اسمه على الاطلاق إلا باستجماع المقامات له ولهذا كان الإيمان نصفين : نصف صبر ونصف شكر والصبر داخل في الشكر فرجع الإيمان كله شكراً والشاكرون هم أقل العباد كما قال تعالى: ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ (١)

ومقام (الحياء) : جامع لمقام المعرفة والمراقبة.

ومقام (الأنس) : جامع لمقام الحب مع القرب فلو كان المحب بعيداً من محبوبه لم يأنس به ولو كان قريباً من رجل ولم يحبه لم يأنس به حتى يجتمع له حبه مع القرب منه.

ومقام (الصدق): جامع الإخلاص والعزم فباجتماعهما يصح له مقام الصدق.

ومقام (المراقبة): جامع للمعرفة مع الخشية فبحسبهما يصح مقام المراقبة.

ومقام (الطمأنينة) : جامع للإنابة والتوكل والتفويض والرضى والتسليم فهو معنى ملتئم من هذه الأمور إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب طمأنينة وما نقص منها نقص من الطمأنينة.

---

(١) سورة سبأ الآية : ١٣.

وكذلك (الرغبة) والرهبة) كل منهما ملتئم من (الرجاء) و(الخوف) والرجاء على الرغبة أغلب والخوف على الرهبة أغلب"[١].

وقال : "وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان : أبرار ومقربون .

فالأبرار في أذياله .

والمقربون في ذروة سنامة .

وهكذا مراتب الإيمان جميعها وكل من النوعين لا يحصى تفاوتهم وتفاضل درجاتهم إلا الله"[٢].

وقال : "على أن الترتيب الذي يشير إليه كل مرتب للمنازل لا يخلو عن تحكم ودعوى من غير مطابقة فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام ودخل فيه كله فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة ومقاماته وأحواله وله في كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات لا يكون موفياً لذلك العقد والواجب إلا بها وكلما وفّى واجباً أشرف على واجب آخر بعده وكلما قطع منزله استقبل أخرى وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال في أول بداية سيرة فينفتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة ما لم يحصل بعد لسالك في نهايته ويحتاج هذا السالك في نهايته إلى أمور – من

---

(١) مدارج السالكين جـ١ صـ١٥٢ – ١٥٤.

(٢) نفسه جـ١ صـ١٥٤.

البصيرة والتوبة والمحاسبة – أعظم من حاجة صاحب البداية إليها فليس في ذلك ترتيب كلي لازم السلوك"(١).

٤. ومن المهم ونحن بصدد الحديث عن عدد المقامات وترتيبها ان نشير إلى أن ترتيب مقامات العبودية لا يعني أن السالك يحقق المقام ثم يفارقه وينتقل إلى الثاني إنما عليه ألا ينفك عن المقام الأول وهو في الثاني وهكذا طول رحلته.

قال ابن القيم : "واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه وينتقل إلى الثاني كمنازل السير الحسي هذا محال ألا ترى أن (اليقظة) معه في كل مقام لا تفارقه وكذلك (البصيرة) و (الإرادة) و (العزم) وكذلك (التوبة) فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضاً بل هي في كل مقام مستصحبة ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته فقال تعالى في غزوة تبوك وهي آخر الغزوات التي قطعوا فيها الأودية والبدايات والأحوال والنهايات: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ ﴾ (٢) فجعل التوبة أول أمرهم وآخره وقال في سورة النصر التي فيها نعى النبي ﷺ – ولهذا تسمى سورة (التوديع) :﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ

---

(١) نفسه جـ١ صـ١٥٤ – ١٥٥.

(٢) سورة التوبة الآية: ١١٧.

ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ۝٧٣ ﴾ (٢) فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة.

فالتوبة هي نهاية كل سالك وكل ولي لله وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديته وما ينبغي له.

وكذلك (الصبر) فإنه لا ينفك عنه في مقام من المقامات.

وإنما الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له.

ومثال ذلك : أن (الرضا) مترتب على (الصبر) لتوقف الرضا عليه واستحالة ثبوته بدونه. فإذا قيل : ان مقام (الرضا) أو حاله على خلاف بينهم: هل هو مقام أو حال ؟ بعد مقام (الصبر) لا يعني به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر" (٣).

٥. ونلاحظ أن الصوفية وإن اختلفوا في عدد المقامات وترتيبها على النحو السالف فإنهم يكادوا يجمعوا على مقام (التوبة) وتقديمه على سائر مقامات العبودية :

---

(١) سورة النصر.

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٧٣.

(٣) مدارج السالكين جـ١ صـ١٤٩ – ١٥٠ بتصرف.

قال السهروردي: "التوبة أصل كل مقام وقوام كل مقام ومفتاح كل حال وهي أول المقامات وهي بمثابة الأرض للبناء فمن لا ارض له لا بناء له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام" (١).

وقال ابن القيم : "والتوبة التي جعلوها من أول المقامات هي غاية العارفين ونهاية أولياء الله المقربين ولاريب أن حاجتهم إلى المحاسبة في نهايتهم فوق حاجتهم إليها في بدايتهم .. فالتوبة أول منازل السائر بعد يقظته ولا تتم التوبة إلا بالمحاسبة فالمحاسبة تكميل مقام التوبة فالمراد بالمحاسبة الاستمرار على حفظ التوبة حتى لا يخرج عنها وكأنه وفاء بعقد التوبة ... فالتوبة هي نهاية كل سالك وكل ولي لله وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديته وما ينبغي له" (٢).

ثانياً : الفرق بين الأحوال والمقامات عند الصوفية:

ليس هناك اتفاق كامل في آراء الصوفية حول الفرق بين المقام والحال من ناحية الدوام وعدم الدوام والاكتساب وعدمه... .

ونشير فيما يلي إلى بعض آراء الصوفية في ذلك:

الأول : فقد أشار قوم منهم إلى الفرق بين المقام والحال من ناحية: أن المقامات مستقرة والأحوال متغيرة وأن الأحوال مواهب والمقامات مكاسب وأن الحال بداية والمقام نهاية ... إلخ.

---

(١) عوارف المعارف على هامش إحياء علوم الدين للغزالي جـ٤ صـ٣٠٠ – ٣٠١.

(٢) مدارج السالكين جـ١ صـ١٥٥ و ١٤٩ – ١٥٠ بتصرف.

قال الطوسي : "وقد حكى عن الجنيد – رحمه الله – أنه قال : الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم.

وقال (أي الطوسي) : وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضات كالمقامات"[١].

وقال القشيري في الفرق بين الأحوال والمقامات : "فالأحوال مواهب ترقى إلى المقامات والمقامات مكاسب بمواهب لأنها إنما تنال بالكسب مع الموهبة فالعبد بالأحوال يترقى إلى المقامات الممتزج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح له حال من مقام أعلى من مقامه إلا وقد قرب إلى ترقيته إليه فلا يزال العبد يترقى إلى المقامات بزيادة الأحوال.

وقال : فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب .

والأحوال تأتي من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود.

وصاحب المقام ممكن في مقامه وصاحب الحال مترق عن حاله.

وسئل ذو النون المصري عن العارف فقال : كان ها هنا فذهب[٢].

قال القشيري : سئل الجنيد عن قول ذي النون المصري في صفة العارف : (كان ها هنا فذهب) فقال الجنيد: العارف: لا يحصره حال عن حال (أي لا يتقيد بحال معين) ولا يحجبه منزل عن التنقل

---

(١) اللمع صـ٦٦.

(٢) الرسالة القشيرية جـ١ صـ٢٠٦.

في المنازل فهو مع أهل كل مكان بمثل الذي هو فيه يجد مثل الذي يجدونه وينطق فيها بمعالمها (أي بأماراتها) لينتفعوا بها[١].

قال القشيري : وقال بعض المشايخ : الأحوال كالبروق فإن بقي فحديث نفس.

وقالوا: الأحوال كاسمها يعني أنها كما تحل بالقلب تزول في الوقت[٢].

<u>**فهذه الأقوال تدل على الآتي:-**</u>

١. أن الأحوال مواهب والمقامات مكاسب ومعنى ذلك أن كل ما يرد على القلب من غير اكتساب هو من الأحوال كالفرح والسرور والحزن والألم وغيرها وتأتي من غير تكلف تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ ... وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ... ﴾ أي يلقي في قلب المرء ما يحجزه عن مراده ويغير سبحانه وتعالى عليه نيته وحظوظ نفسه وهواها أما المقامات فيصل إليها السالك بالصبر والمجاهدة والزهد والورع والقناعة والرضا والتوكل واسقاط التدبير وغيرها.

(١) نفسه جـ٢ صـ٦٠٩.

(٢) نفسه جـ١ صـ٢٠٦.

٢. أن الحال بداية والمقام نهاية فالأحوال مبادئ للمقامات ولذا قيل: إذا دامت الحال صارت مقاماً لصاحبها – كما أشرنا – .

٣. والحال ما يتحول والمقام ما لا يتبدل.

٤. والحال له انعدام والمقام له الدوام فالمقامات مستقرة والأحوال متغيرة.

فالمقام هو الوصف الذي يثبت على العبد ويقيم فإن لم يثبت سمي حالاً.

"إذن المقام يشير إلى مرحلة تتصف بشيء من الاستقرار ويصل إليها الإنسان بجهده الشخصي بينما الحال يعبر عن ظرف عارض سريع الزوال عن هبة من الله تعالى أو فضل أو فيض لا حكم للإرادة الإنسانية عليه في ظهوره أو زواله" [(١)].

الثاني : وأشار آخرون إلى بقاء (الأحوال) ودوامها:

ولعل مرادهم بذلك توالي الأمثال وتكررها فكأنها بذلك تشبه الباقين.

قال القشيري: " وقالوا : (أي القائلين ببقاء الأحوال) : إنها إذا لم تدم ولم تتوال فهي لوائح وبواده (يعني تأتي بغتة) ولم يصل

---

(١) د. عبد الحليم محمود : أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي صـــ٢٧٩.

صاحبها بعد إلى الأحوال (أي لعدم بقائها لكنه يصل إليها فهي باقية) فإذا دامت تلك الصفة (وتوالت) فعند ذلك تسمى حالاً.

وهذا أبو عثمان الحيرى (ت٢٩٨هـ) يقول: منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته.

أشار بذلك إلى دوام (الرضا) و (الرضا) من جملة الأحوال" [١].

فهذا كله يدل على بقاء الأحوال إن توالت أمثالها فإذا توالت أمثالها سميت أحولاً) وإلا فلوائح وبواده.

فلصاحب هذه الحال – المتقررة – أحوال هي طوارق لا تدوم تأتيه من فوق أحواله التي صارت دائمة له فإذا دامت هذه الطوارق واستقرت ارتقى إلى أحوال أخرى فوق التي حصلت له.

ولذا قال القشيري : "فالواجب في هذا أن يقال : إن من أشار إلى بقاء الأحوال فصحيح ما قال فقد يصير المعنى شرباً (أي حظاً ومقاماً) لأحد فيه فيربى أي الأحد فيه.

ولكن لصاحب هذه الحال (أي الشِرب وهو المقام) أحوال : هي طوارق أحوال لا تدوم فوق أحواله التي صارت شربًا له فإذا دامت هذه الطوارق له كما دامت الأحوال المتقدمة ارتقى إلى أحوال آخر فوق هذه وألطف من هذه فأبداً يكون في الترقي" [٢].

أي أن (الحال) إن توالت على معنى واحد وأمثال متحدة تصير لمن توالت على قلبه مقاماً يربى فيه ومع ذلك ترد له أحوال أخر

---

(١) الرسالة القشيرية جـ١ صـ٢٠٧.

(٢) نفسه جـ١ ص : ١٠٧.

لا تدوم شرفها أعلى مما صارت له مقاماً فإذا دامت كذلك صارت له مقاماً آخر أيضاً وهكذا يقال في غير ذلك مما يرد على قلب الإنسان فأبداً يكون السالك في الترقي في الدرجات العلية[١].

فمقدورات الحق سبحانه من الألطاف لا نهاية لها فلا معنى يوصل إليه إلا وفي مقدوره سبحانه ما هو فوقه يقدر أن يوصله إليه فالعبد أبداً في ارتقاء أحواله.

وربما تعرض للسالك لوائح مما تحت (الحال) الذي هو فيه وهذا هو ما سماه أبو علي الدقاق (غيناً) وذلك إذا ترتقى من حالة إلى حالة أعلى مما كان فيها فربما حصل له ملاحظة إلى ما ارتقى عنها فكان بعدها (غيناً) بالإضافة إلى ما حصل فيها أخذاً من قوله – ﷺ – : (إنه ليغان (أي يغطى) على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم سبعين مرة)[٢].

قال القشيري : "سمعت الأستاذ أبو علي الدقاق – رحمه الله – يقول في معنى قوله – ﷺ – : (إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم سبعين مرة) أنه كان – ﷺ – في الترقي من أحواله فإذا ارتقى من حالة إلى حالة أعلى مما كان فيها فربما حصل له ملاحظة إلى ما ارتقى عنها فكان بعدها (غيناً) – أي ستراً رقيقاً

(١) الشيخ السبكي : مختصر كتاب أعذب المسالك صــ٢٣٦.

(٢) رواه مسلم وأحمد والنسائي وأبو داود.

يعني تغطية لقلبه – بالإضافة إلى ما حصل فيها فأبداً كانت أحواله في التزايد[١].

ومقدورات الحق سبحانه من الألطاف لا نهاية لها فإذا كان حق الحق تعالى العز – أي الرفعة – وكان الوصول إليه بالتحقيق محالاً فالعبد أبداً في ارتقاء أحواله.

فلا معنى يوصل إليه إلا وفي مقدوره سبحانه ما هو فوقه يقدر أن يوصله إليه وعلى هذا يحمل قولهم : (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

وسئل الجنيد في هذا فأنشد:

طوارق أنوار تلوح إذا بدت *** فتظهر كتماناً وتخبر عن جمع[٢].

أي المقامات أولها طوارق تلوح إذا ظهرت ونهايتها أنها إذا قويت بعد ظهورها أظهرت الجمع وكمال الحال وكتمان السر وأول المقام طوارق ونهاية جمع وكمال حال وكتمان سر فأشار بالأول إلى مقام الأبرار وبالثاني إلى مقام المقربين[٣].

---

(١) قيل : قال ذلك على جهة التعليم لأمته لغلبة الخطأ عليهم . وقيل : أنه كان كلما ذكر أمته وما يكون منهم بعده استغفر الله لهم وقيل: غين أنوار لا عين أغيار وإنما سميت غيناً بالنسبة لما ينتقل إليه – ﷺ – من الرتب وإن كانت في نفس الأمر فأبداً كانت أحواله – ﷺ – في التزايد. أنظر : الشيخ السبكي : مختصر كتاب أعذب المسالك المحمودية صـــ٢٣٧.

(٢) الرسالة القشيرية جـــ١ صـــ٢٠٧ – ٢٠٨.

(٣) انظر : مختصر كتاب أعذب المسالك صـــ٢٣٧.

ومن المفيد ونحن بصدد الحديث عن المقامات والأحوال من حيث الديمومة وعدمها أن نشير إلى رأي الحكيم الترمذي في هذه المسالة.

فالحكيم الترمذي في رده على من قال أن المقامات لا تتناهى قال :"فالمقامات معلومة وعددها متناه ولتدرج القلوب في هذه المقامات نهاية تصير إليها نعم أن كل مقام في نفسه لا منتهى له لكن القلوب تنتهي إلى مقام لا تستطيع أن تتجاوزه بعد ذلك لأن وراءه مما بطن فلا يمكن مجاوزته بحال.

وهذا المقام الذي تنتهي عنده المقامات هو مقام : (الواحد الفرد) حتى تنقطع الصفات وينقطع الكلام والعبادات.

والمقصود بذلك أن الولي حين يصل إلى هذا المقام لا يعود لديه إدراك لشيء ولا شعور بشيء ولا ملاحظة إلى شيء بل يكون الله تعالى وحده في وحدانيته وفردانيته هو كل شيء فهل يستطيع العبد أن يصل بعد ذلك إلى شيء ... أليس الوصول إلى الله هو غاية الولي ؟ وماذا بقي بعد الوصول إلى مقام (القربة) ..... " (١).

كما أن الحكيم الترمذي يقرر كذلك عدم دوام الأحوال بقوله :

فينبغي للعبد أن يحول بين نفسه وبين أن تفترض هذه الأحوال وهذه العطايا لتجني من ورائها لذة دنيوية لأن العطاء هو نفقة وإذا أسرف في النفقة لحقه الغرم.

---

(١) الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية د/ عبد الفتاح بركة جـ٣ صـ٢٦٨ – ٢٦٩.

ويبين أن دوام (الحال) مما لا تحتمله النفوس لذلك ينقطع الحال رحمة من الله تعالى بعبده وإن اطرب لذلك كما تفعل الأم بقطع (أي بمنع) الثدي عن طفلها عندما تعرف أنه اكتفى وأن الزيادة قد تفسده فلا يحتملها..[١] .

بينما نجد (المحاسبي ت٢٤٣هـ) لا ينفي صفة الدوام في الأحوال فقد نقل الهجويري أن (الحال) عند المحاسبي قد يتصف بالدوام[٢].

وأيضاً عن الفرق بين المقامات والأحوال قال ابن القيم:

" والفرق بينهما: أن المقامات كسبية والأحوال وهبية ومنهم من يقول : الأحوال من نتائج المقامات والمقامات نتائج الأعمال فكل من كان أصلح عملاً كان أعلى مقاماً وكل من كان أعلى مقاماً كان أعظم حالاً.

فمما اختلفوا فيه (الرضا) هو حال أو مقام؟ فيه خلاف بين الخرسانيين والعراقيين وحكم بينهم بعض الشيوخ فقال : إن حصل بكسب فهو مقام وإلا فهو حال.

والصحيح في هذا: أن الواردات والمنازلات لها أسماء باعتبار أحوالها فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند أول ظهورها وبدوها كما يلمع البارق ويلوح عن بعد فإذا نازلته وباشرها فهي أحوال فإذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهي مقامات وهي لوامع ولوائح في أولها وأحوال في أوسطها ومقامات في نهاياتها فالذي

---

(١) الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية د/ عبد الفتاح بركة جـ٢ صـ٢٦٩ – ٢٧٠.

(٢) كشف المحجوب ترجمة نيكولسون صـ١٧٩.

كان بارقاً هو بعينه الحال والذي كان حالاً هو بعينه المقام وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب وظهوره له وثباته فيه.

وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب وينزل إلى ما دونه ثم قد يعود إليه وقد لا يعود" (١).

وقال القونوي (ت٧٦٢هـ) في الفرق بين المقامات والأحوال : "والتحقيق أن الجميع (أي المقامات والأحوال) مواهب إلا أن المقامات يظهر فيها الكسب ويبطن فيها الموهبة والأحوال بالعكس وقد تصير الأحوال مقامات وذلك عند استقرارها وأسبابها وهي الطاعة قد يعرفها العبد وقد لا يعرفها في الحال كأن يجد من نفسه القبض والبسط ولا يعرف سببه لغفلة أو نسيان"(٢).

وحاصل تحقيقه: أن الجميع مواهب أي حاصلة بطريق الهبة والمنة والفرق بين المقام والحال إنما هو بالنظر إلى خفاء السبب وظهوره في كل منهما قال بعضهم وقال بعض المشايخ: الأحوال كالبروق في سرعة زوالها فإن بقي شيء منها مع العبد فحديث نفسه أي غالباً في حديث نفسه بالحال لا نفس الحال وهذا فيما لم تتوال عليه الأحوال أما هو فقد تصير له مقاماً كما مر(٣).

وبهذا يتبين الفرق بين المقام والحال من ناحية الاكتساب وعدمه كما يتبين الفرق بين الحال والغين والطارق من ناحية الدوام الذي

---

(١) مدارج السالكين جـ١ صـ١٥١ – ١٥٢.

(٢) مختصر كتاب أعذب المسالك صـ٢٣٥.

(٣) نفسه صـ٢٣٦.

يصير إليه وعدم الدوام الذي إذا نظرت فيه إلى حال أقل سمى (غيناً) وإذ نظرت منه إلى حال أعلى سمى (طارقاً).

المهم أنه من الملاحظ أن الصوفية اختلفوا في التفريق بين الحال والمقام وذلك أنها قد تتداخل فيصعب التمييز بينهما فهم يقررون – كما أشرنا – إلى أن المقامات لها صفة الديمومة بينما الأحوال لها صفة التغير المستمر ومع هذا فإن منهم من أشار إلى بقاء الأحوال ودوامها.

"والرأي الجامع للرأيين السابقين هو أن (الحال) كان في بدايته معنى يطرأ ويزول فلا استقرار له ولكنه بالتكرار قد لا يصير معنى راسخاً لا يزول.

ومن هنا يمكن أن يصبح ذلك المعنى مقاماً عند صاحبه في النهاية مع أنع كان في بدايته حالاً يطرأ ويزول وقد مثلوا لهذا بحال (المراقبة) الذي يطرأ ويزول مرات عديدة عند السالك ثم يصبح مقاماً لصاحبه وذلك حين يغلب عليه مراقبة الله تعالى في جميع أعماله وأحواله"(١).

<u>ثالثاً : ومن الملاحظ كذلك أن الصوفية يختلفون أيضاً في تحديد المقامات والأحوال نتيجة التشابه والتداخل بينهما بحيث يصعب على بعضهم التمييز بين المقام والحال فما يراه بعضهم حالا يراه البعض الآخر مقاماً:</u>

---

(١) د/ عمر بن عبد العزيز القريشي : شبهات التصوف صـــ١٨١ بتصرف.

ويشير ابن القيم إلى هذا الاختلاف بقوله : "ولهم (أي الصوفية) اختلاف في بعض منازل السير هل هي من قسم الأحوال ..؟"(١).

ومن الأمثلة على هذا التشابه والتداخل في هذا الصدد ما يلي:

- فعندما نقارن (المقامات) عند الحكيم الترمذي بما نجده عند الطوسي نجد اختلافاً كبيراً نتيجة التشابه والتداخل فبعض ما نجده عند الحكيم على أنه منازل أو مقامات (كالمحبة) نجده عند الطوسي على أنه أحوال.
- وعندما نقارن ما ورد عن أبي طالب المكي والسهرودي على أنه من المقامات (كالخوف والرجاء) بما ورد عند الطوسي نجده يعتبر ذلك من الأحوال.
- والطوسي اعتبر أن (الرضا) من المقامات بينما اعتبر القشيري (الرضا) من الأحوال.
- والطوسي اعتبر (المحبة) من الأحوال وكذلك السهرودي بينما المكي وغيره اعتبر (المحبة) من المقامات.

ويشير الإمام القشيري إلى اختلاف مشايخ الصوفية في تحديد المقامات والأحوال فيقول: "وقد اختلف العراقيون والخرسانيون في (الرضا) هل هو من الأحوال أو من المقامات فأهل خرسان قالوا

---

(١) مدارج السالكين جـ١ صـ١٥١.

من جملة المقامات وهو نهاية (التوكل) ومعناه أنه يؤل إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه .

- وأما العراقيون فإنهم قالوا : الرضا من جملة الأحوال وليس ذلك كسباً للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال"[(١)].

قال القشيري : "ويمكن الجمع بين اللسانين (أي القولين) فيقال : بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من المقامات ونهايته من جملة الأحوال وليست بمكتسبة.

وتكلم الناس في (الرضا) فكل عبر عن حاله وشربه (أي نصيب) فهم في العبارة عنه مختلفون كما أنهم في الشرب والنصيب من ذلك متفاوتون"[(٢)].

- وحول اختلاف الصوفية في تحديد المقامات والأحوال أيضاً قال السهرودي: وقد ذكر جمع من المشايخ (الحب) في المقامات فيكون النظر إلى هذا (الحب العام) الذي يكون الكسب للعبد فيه مدخل .... فالحب العام مفسر بامتثال الأمر وربما كان حباً من معدن العلم بالآلاء والنعماء وهذا الحب مخرجه من الصفات.

وأما (الحب الخاص) فهو حب الذات عن مطالعة الروح وهو الحب الذي فيه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه

---

(١) الرسالة القشيرية جـ٢ صـ٤٢٢.

(٢) نفسه جـ٢ صـ٤٢٢.

إياه وهذا الحب يكون من الأحوال لنه محض موهبة ليس للكسب مدخل فيه وهذا الحب (الخاص) روح والحب الذي يظهر عن مطالعة الصفات ويطلع من مطالع الإيمان (الحب العام) قالب هذا الروح.

وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها وهو في الأحوال كالتوبة في المقامات فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل ... ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك..."(١).

وذكر الهجويري أن المحاسبي (المتوفي سنة ٢٤٣هـ) يعتبر (الرضا) حالاً لا مقاما.

وهو يعرِّف (الرضا) من وجهة نظر المحاسبي بأنه "راحة القلب".

ثم قال: وهذا رأي صحيح فراحة القلب واطمئنانه ليس من الصفات المكتسبة في الإنسان وإنما هي من نعم الله عليه(٢).

قل الدكتور عبد الحليم محمود في تعليقه على هذا :"ولا نجادل فيما يقرره الهجويري من أن المحاسبي يعتبر (الرضا) حالاً وقد يكون ذلك صحيحاً خاصة وإن ذكرنا ما قاله الهجويري من أن المحاسبي لا ينفي صفة الدوام في الأحوال.

---

(١) عوارف المعارف على هامش الإحياء للغزالي جـ٤ صـ٣٨٧ – ٣٩٠

(٢) كشف المحجوب ترجمة نيكولسون صـ١٨٠ وانظر : أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي صـ٣١٢.

غير أننا نود الإشارة إلى أن حديث المحاسبي عن الرضا لا يبين منه هذا بل هو يعرض له ضن المقامات وكأنه واحد منها.
وقال : ثم إننا نجد في حلية الأولياء أن سائلاً يسأله : فكيف السبيل إلى مقام (الرضا)؟
ويجيب المحاسبي على السؤال بإيضاح السبيل دون أن ينفي كون (الرضا) مقاماً[١].

- المهم أن كل ذلك يبرهن على التشابه والتداخل بين المقامات والأحوال مما أدى إلى صعوبة التمييز بينهما عند بعض الصوفية.

كما أن التشابه والتداخل بين المقامات والأحوال قد أدى إلى اختلاف كثير من الصوفية حولها من حيث العدد والترتيب ومن حيث الفرق بينهما من ناحية الدوام وعدمه والاكتساب وعدمه.... إلخ.
والسهروردي في (عوارف المعارف) يشير إلى اختلاف شيوخ الصوفية حول الحال والمقام وأن سبب الاختلاف يرجع إلى التشابه والتداخل بينهما فيقول :
" قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام واختلفت اشارات الشيوخ في ذلك ووجود الاشتباه لمكان تشابهها في نفسهما وتداخلهما فتراءى للبعض الشيء حالاً وتراءى للبعض مقاماً وكلا الرؤيتين صحيح

(١) استاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي صـــ٣١٣.

لوجود تداخلهما ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق.

فالحال سمي حالاً لتحوله والمقام مقاماً لثبوته واستقراره.

وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاماً مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ثم يحوّل الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ويغلب حال المحاسبة وتنقهر النفس وتنضبط وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه فيصير في مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة ثم ينازله حال المراقبة فمن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال ثم يحوّل حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة في باطن العبد إلى أن ينقشع ضباب السهوة والغفلة ويتدارك الله عبده بالمعونة فتصير المراقبة مقاماً بعد أن كانت حالاً ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة فإذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقاماً ونازل المشاهدة أيضاً يكون حالاً يحول بالاستتار ويظهر بالتجلي ثم يصير مقاماً وتتخلص شمسه عن كسوف الاستتار ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص إلى البقاء والترقي من عين اليقين إلى حق اليقين

وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب وذلك أعلى فروع المشاهدة"[١].

وقال : "ولما كان الأصل في الأحوال هذه الحالة وهي أشرف الأحوال وهي محض موهبة لا تكتسب سميت كل المواهب من النوازل بالعبد أحوالاً لأنها غير مقدورة للعبد بكسبه فأطلقوا القول وتداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب والأحوال مواهب وعلى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب إذ المكاسب محفوفة بالمواهب والمواهب محفوفة بالمكاسب.

فالأحوال مواجيد والمقامات طرق المواجيد ولكن في المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب وفي الأحوال بطن الكسب وظهرت المواهب فالأحوال مواهب علوية سماوية والمقامات طرقها وقول أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) – رضي الله عنه – سلوني عن طرق السماوات فإني أعرف بها من طرق الأرض إشارة إلى المقامات والأحوال فطرق السماوات : التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات فإن السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماوياً وهي طرق السماوات ومتنزل البركات وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوي.

قال : وسمعت المشايخ بالعراق يقولون (الحال) من الله فإذا لاح للمريد شيء من المواهب والمواجيد قالوا هذا من الله وسموه حالاً إشارة منهم إلى أن الحال موهبة وكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون هذا من العبد.

---

(١) عوارف المعارف بهامش احياء علوم الدين جـ٤ صـ٢٨١ – ٢٨٥.

وقال بعض مشايخ خراسان : الأحوال مواريث الأعمال وقل بعضهم: الأحوال كالبروق فإن بقي فحديث النفس وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق وإنما يكون ذلك في بعض الأحوال فإنها تطرق ثم تستلبها النفس فأما على الإطلاق فلا ، والأحوال تمتزج بالنفس كالدهن بالماء.

- وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون إلا إذا دامت فأما إذا لم تدم فهي لوائح وطوالع وبوادر وهي مقدمات الأحوال وليست بأحوال" [(١)].

وقال أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود في ذلك : "المقامات محدودة في عددها مثلها في ذلك مثل أعمال الإرادة الإنسانية أما الأحوال فلا حصر لها لأنه ليس في استطاعة الإنسان أن يحصى نعم الله تعالى"[(٢)].

فالأحوال التي تتقلب على قلب المريد الصادق لا يمكن حصرها ومن ثم تحديدها ولو أراد أحد ذلك فإن عليه أن يتعرف على جميع فنون العلم والفكر وهذا غير متيسر ولا مستطاع للإنسان[(٣)].

وفي ضوء ما تقدم يمكننا أن نستخلص ما يلي:

١. أن هناك تطوراً قد طرأ على مصطلح (المقامات) و (الأحوال) عند الصوفية وقد عرضنا نماذج لهذا التطور في عدد المقامات

---

(١) عوارف المعارف بهامش إحياء علوم الدين جـ٤ صـ٢٨٦ – ٢٩٠.

(٢) أستاذ السائرين المحاسبي صـ٢٧٩.

(٣) أنظر: د/ حسن محمد الشرقاوي : ألفاظ الصوفية ومعانيها صـ١٣٣.

وترتيبها حيث أنها ومنذ أواخر القرن الثالث وخلال القرن الرابع الهجري وما بعده قد صيغت (المقامات) صياغة منهجية – كما رأينا – .

٢. أنه ليس هناك اتفاق كامل بين الصوفية في تحديد المقامات والأحوال من ناحية العدد والترتيب ومن ناحية الفروق بينهما من ناحية الديمومة وعدمها والاكتساب وعدمه ... واختلافهم كذلك في تحديد المقامات والأحوال وصعوبة التمييز بينهما عند بعض الصوفية فما يراه البعض حالاً يراه الآخر مقاماً وهكذا.

٣. إن اختلاف الصوفية حول المقامات والأحوال على النحو السالف إنما يرجع إلى التشابه والتداخل بين المقامات والأحوال – كما تقدم – .

* * *

□

المبحث الثالث

المقامات والأحوال بين الرفض والقبول

نحاول بعون من الله تعالى أن نعرض بإيجاز لبعض ما أثير من شبهات ونقود حول (المقامات والأحوال) ثم نتبع ذلك بنماذج لقبول المقامات والأحوال.

أولاً: نماذج لنقود بعض العلماء للمقامات والأحوال:

فمن ذلك : ما وجهه ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) من هجوم عنيف لمقامات الصوفية وأحوالهم.

قال ابن الجوزي : "وأول من تكلم في بلدته في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية (ذو النون المصري) فأنكر عليه ذلك عبد الله بن عبد الحكم وكان رئيس مصر وكان يذهب مذهب مالك وهجره مالك وهجره لذلك علماء مصر لما شاع خبره أنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف حتى رموه بالزندقة" [1].

وقال : "ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في : الجوع والفقر والوساوس والخطرات وصنفوا في ذلك مثل: الحارث المحاسبي (ت٢٤١هـ) وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف وأفردوا بصفات ميزوا بها من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد ... وصنف لهم أبو نصر السراج كتاباً سماه لمع الصوفية ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرزول ... وصنف لهم أبو طالب المكي قوت القلوب ...

---

(١) تلبيس إبليس صـ١٨٥.

وذكر فيه الاعتقاد الفاسد .. وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم كتاب الحلية وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة ... وصنف لهم القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في : الفناء والبقاء والقبض والبسط والوقت والحال والوجد والوجود والجمع والتفرقة والصحو والسكر والذوق والشرب والمحو والإثبات والتجلي والمحاضرة والمكاشفة واللوائح والطوالع واللوامع والتكوين والتمكين والشريعة والحقيقة إلى غير ذلك من الخليط الذي ليس بشيء وتفسيره أعجب منه وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنف لهم صفوة التصوف فذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها"(١).

قال ابن الجوزي: "وكان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء لقلة علمهم بالسنن والإسلام والآثار وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم وإنما استحسنوها لأنه قد ثبت في النفوس مدح (الزهد) وما رأوا حالة أحسن من حالة هؤلاء القوم في الصورة ولا كلاماً أرق من كلامهم وفي سير السلف نوع خشونة ثم أن ميل الناس إلى هؤلاء القوم شديد لما ذكرنا من أنها طريقة ظاهرها النظافة والتعبد وفي ضمنها الراحة والسماع والطباع تميل إليها..."(٢).

- ومن نقود ابن الجوزي أيضاً ما اتهم به المحاسبي في قوله بالزهد وحديثه عن المال قال ابن الجوزي: "فمن كلام

---

(١) نفسه صـــ١٨٢ – ١٨٤ .

(٢) نفسه صـــ١٨٤.

الحارث المحاسبي في هذا أنه قال : أيها المفتون متى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد أذريت بمحمد - ﷺ - والمرسلين وزعمت أن محمداً - ﷺ - لم ينصح الأمة إذ نهاهم عن جمع المال وقد علم أن جمعه خير لهم وزعمت أن الله لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم أن جمعه خير لهم... فهذا عبد الرحمن بن عوف مع فضله يوقف في عرصة القيامة بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ولصنائع المعروف فيمنع من السعي إلى الجنة مع فقراء المهاجرين وصار يحبو في آثارهم حبواً وقد كان الصحابة - رضي الله عنهم - إذا لم يكن عندهم شيء فرحوا وأنت تدخر المال تجمعه خوفاً من الفقر وذلك من سوء الظن بالله وقلة اليقين بضمانه وكفى به اثماً..."(١).

وقد علق ابن الجوزي على كلام المحاسبي بقوله : "وهذا كله بخلاف الشرع والعقل وسوء فهم للمراد بالمال"(٢).

والواقع أن هجوم ابن الجوزي للمحاسبي واتهامه له إنما كان نتيجة إغفال ابن الجوزي للظروف التي قال فيها المحاسبي عباراته

---

(١) نفسه صـــ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) نفسه صـــ١٩٧.

السابقة عن المال فظروف عصر المحاسبي هي التي اضطرته للحديث عن المال بالعبارات المناسبة لظروف عصره.

ومن النصوص التي توضح صحة قصد المحاسبي في الحديث عن المال وعدم مخالفته للشرع في هذ الموضوع قوله:

"إخواني إني وجدت الأصل الذي هو ضد الآخرة وأبلغ مكايد الشيطان في فساد الأمة وتضيع حدود الدين وجدته حب الدنيا وبحب المال والتعظيم له تقبلوا في فنون الحرام والآثام واستهانوا بكثير من أمر الله ونهيه"(١).

فهذا الذي ذكره المحاسبي يوافق ما قرره القرآن الكريم والسنة المطهرة من أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأن الحرص الشديد على جمع المال هو أصل كل مفسدة.

ويرد المحاسبي على من يحتج بثراء بعض الصحابة وأن الإكثار من المال أفضل من الإقلال منه أو الزهد فيه فيقول: "ويحك أيها المفتون أن احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك لتهلك لأنك متى زعمت أن خيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف العظيم والزينة فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم ... أيها المفتون تدبر ما دهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ويحك وما ينفعك

---

(١) النصائح الدينية صـــ٣٥.

الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف - ﷺ - فقد ودّ عبد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يؤت من الدنيا أكثر من قوت يومه"(١).

فهذا النص يشير إلى أن الحرص الشديد على الإكثار من المال ليس أفضل من الإقلال منه بأية حال ومن زعم خلاف ذلك فقد خالف ما كان عليه النبي - ﷺ - من الزهد في المال كما قال المحاسبي: "ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد أذريت بمحمد - ﷺ - والمرسلين...".

ومن زعم ذلك أيضاً فقد أخطأه التوفيق في فهم ما كان عليه الصحابة - ﷺ - من الزهد في المال وفي فهم تحذير القرآن الكريم من التكاثر من الأموال وفتنتها.

وهذا النهج من الفهم الذي كان عليه المحاسبي لمقام (الزهد) واختيار الإقلال من المال على الإكثار منه لا يعيب الإسلام في شيء.

فالإسلام لم يدع إلى عدم جمع المال على الإطلاق لكنه أرشد إلى أن جمع المال لشره وزينة وتفاخر يؤدي بصاحبه إلى الهلاك قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ ﴾ (٢)

---

(١) النصائح صـــ٤٠.

(٢) سورة العلق ٦ – ٧.

وقال تعالى :﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾ (١).

هذه بعض أمثلة لما وجهه ابن الجوزي من نقد لبعض الصوفية في (المقامات) ومنها يظهر لنا أن ابن الجوزي كان عنيفاً في نقده للمحاسبي حيث اتهمه بسوء فهمه للزهد ونظرته للمال في حين أن ما قدمناه من نصوص للمحاسب يدفع عنه بوضوح ذلك الاتهام.

والآن بعد أن عرضناه جانباً من نقود ابن الجوزي للتصوف والصوفية وهو الجانب المتعلق بمدى رفضه لمقامات الصوفية من خلال هجومه الشديد على بعض أعلام التصوف في هذا الموضوع.

نشير بإيجاز إلى قبول ابن الجوزي للتصوف من زاوية معينة حيث قبل بعض ما نادى به الصوفية من آراء فقال:

"قد يسمع العامي ذم الدنيا في القرآن المجيد والأحاديث فيرى أن النجاة تركها ولا يدري ما الدنيا المذمومة فيلبس عليه إبليس بأنك لا تنجو في الآخرة إلا بترك الدنيا فيخرج على وجهه إلى الجبال فيبعد عن الجمعة والجماعة والعلم ويصير كالوحش ويخيل إليه أن هذا هو الزهد الحقيقي .. وإنما يتمكن إبليس من التلبيس على هذا القلة علمه ومن جهله رضاه عن نفسه بما يعلم ولو أنه وفق

---

(١) سورة التغابن ١٥.

لصحبه فقيه يفهم الحقائق لعرفه أن الدنيا لا تذم لذاتها وكيف يذم ما مَنَّ الله تعالى به وما هو ضرورة في بقاء الآدمي وسبب في إعانته على تحصيل العلم والعبادة من مطعم ومشرب وملبس ومسجد يصلي فيه وإنما المذموم أخذ الشيء من غير حله أو تناوله على وجه السرف لا على مقدار الحاجة..."[١].

فابن الجوزي في هذا النص قد نادى بالزهد المعتدل وكما هو الحال عند الصوفية المحققين وهذا عين ما ذهب إليه المحاسبي منذ قليل .

وفي نص آخر لابن الجوزي نجده أنه يشيد بأهل التصوف الذين قد ركزوا في دعوتهم إلى التحلي بمكارم الأخلاق من خلال التزامه بمنازل العبودية في سيره إلى الله عز وجل:

قال ابن الجوزي : "وهذا الاسم (أي التصوف) ظهر للقوم قبل سنة مائتين ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة وحاصلها أن التصوف عندهم : رياضة النفس ومجاهدة الطبع يرده عن الأخلاق الرزيلة وحمله على الأخلاق الجميلة من : الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال المحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى "[٢].

<u>ثانياً : نماذج لقبول بعض العلماء للمقامات والأحوال:</u>

---

(١) تلبيس ابليس صـــ١٦٧.

(٢) نفسه صـــ١٨١.

في منتصف القرن السادس الهجري ظهر ابن رشد المتوفي سنة ٥٩٥هـــوكان له رأي في لتصوف فيما يتعلق بطريق الصوفية الكشفي وبمقامات الصوفية وأحوالهم.

ويهمنا الآن توضيح رأيه في (المقامات والأحوال) حيث أنه قد مال إلى قبول الطريق الصوفي: المقامات والأحوال.

يتضح ذلك من إشادته بالمقامات والأحوال عند الصوفية وذلك مثل : مقام : (الزهد والصبر) وغير ذلك مما ذكروه وأرشدوا إليه المريدين أو السالكين.

قال ابن رشد في ذلك : "وينبغي أن نعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعليم العلم الحق والعمل الحق والعلم الحق: هو معرفة الله تعالى وسائر الوجودات على ما هي عليه وبخاصة الشرعية منها وهي السعادة الأخروية والشقاء الآخروي.

والمعرفة بهذه الأفعال هو الذي يسمى (العلم العملي) وهذه تنقسم قسمين:

أحدهما: أفعال ظاهرة بدنية والعلم بهذه هو الذي يسمى الفقه.

والقسم الثاني : أفعال نفسانية مثل : الشكر والصبر وغير ذلك من الأخلاق التي دعا إليها الشرع أو نهى عنه والعمل بهذه هو الذي يسمى (الزهد) و (علوم الآخرة) وإلى هذا نحا أبو حامد في كتابه"[١] يقصد إحياء علوم الدين.

---

(١) فصل القال : صـــ١٥٠.

ومن هذا النص لابن رشد نقف على الزاوية التي قبلها من التصوف فهو لم يرفض التصوف فيما بني عليه من المقامات والأحوال ومن التحلي بمكارم الأخلاق وإنما كان رفض ابن رشد للتصوف مقصوراً على استغناء الصوفية بالكشف والإلهام عن طريق البحث العقلي أو التفلسف في ميدان عالم المغيبات أي أن رفضه للتصوف كان متعلقاً بوسيلة المعرفة عند الصوفية فحسب وهي (الكشف والإلهام) .

قال ابن رشد في نقده المتعلق لطريق الكشف الصوفي : "وأما الصوفية فطرقهم في النظر ليست طرقاً نظرية أعني مركبة من مقدمات وأقيسة وإنما يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شيء يلقي في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية وإقبالها بالفكر على المطلوب"(١).

فهذا النص يكشف عن رفض ابن رشد للتسليم بصحة طريق الكشف أو الإلهام.

وبعد عرض ابن رشد طريق الصوفية الكشفي ذكر الحجج التي قدمها الصوفية على صحة منهجهم الكشفي فقال : "ويحتجون لتصحيح هذا بظواهر من الشرع كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾(٢) ومثل قوله تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا

---

(١) مناهج الأدلة صـــ١٥٠.

(٢) سورة البقرة :٢٨٢.

لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[١] ومثل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾[٢] إلى أشباه ذلك كثيرة نظير أنها عاضدة لهذا المعنى"[٣].

وابن رشد بعد ذكره للآيات التي احتج بها الصوفية على سلامة طريقهم الكشفي نجد أنه كان يميل إلى رفض طريق الصوفية الكشفي فقال : "ونحن نقول: إن هذه الطريقة وإن سلمنا وجودها فإنها ليست عامة للناس بما هم ناس وإن كانت هذه الطريقة هي المقصودة بالناس ليطلب طريقة النظر ولكان وجودها بالناس عبثاً والقرآن كله إنما هو دعاء إلى النظر والاعتبار وتنبيه على طرق النظر"[٤].

فهذا النص أيضاً يشير إلى رفض ابن رشد لطريق الصوفية الكشفي ويؤكد هنا على أمرين:

أولهما : أن طريق القوم الكشفي لا يطيقه عامة للناس.

وثانيهما: أن هذا الطريق ليس هو الطريق الشرعي الذي دعا إلى النظر والاعتبار.

والحقيقة أن ما أثاره ابن رشد من نقد حول طريق الصوفية الكشفي ليس مقبولاً عند كل منصف ويوجد العديد من الردود على إبطال

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩.

(٢) سورة الأنفال ٢٩.

(٣) مناهج الأدلة صـــ١٥٠

(٤) نفسه صـــ١٥٠.

ما أثاره ابن رشد من شبهات حول طريق الصوفية الكشفي لكننا لسنا معنيين بذلك في هذا البحث.

إنما الذي يعنينا هنا هو قبول ابن رشد لمقامات الصوفية وأحوالهم حيث أنها من الأمور التي دعا إليها الشرع – كما سيأتي – .

كما أن الإمام (ابن تيمية المتوفي سنة ٧٢٨هـ) قد أشاد بمقامات الصوفية وأحوالهم مثل: الصبر والشكر والتوكل والخوف والرجاء والحب لله وغير ذلك مما هو معروف عند الصوفية والذي دل عليه القرآن الكريم والسنة المطهرة.

قال ابن تيمية أثناء حديثه عن الطريق الموصل إلى الله تعالى:

"إن الألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة علينا أن نتبع ما دلت عليه مثل لفظ: الإيمان والبر والتقوى والصدق والعدل والإحسان والصبر والشكر والتوكل والخوف والرجاء والحب لله والطاعة لله وللرسول وبر الوالدين والوفاء بالعهد ونحو ذلك مما يتضمن ذكر ما أحبه الله ورسوله من القلب والبدن فهذه الأمور التي يحبها الله ورسوله هي الطريق الموصل إلى الله مع ترك ما نهى عنه ورسوله كالكفر والنفاق والكذب والإثم والعدوان والظلم والجزع والهلع والشرك والبخل والجبن وقسوة القلب والغدر وقطيعة الرحم ونحو ذلك فعلى كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله وما نهى عنه الله ورسوله فيتركه هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصيقين

والشهداء والصالحين وهذا الصراط المستقيم يشتمل على علم وعمل علم شرعي وعمل شرعي..."[١].

وقال : "وطريق الله لا تتم إلا بعلم وعمل يكون كلاهما موافق الشريعة فالسالك طريق : الفقر والتصوف والزهد والعبادة إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة وإلا كان ضالاً عن الطريق وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه ... فهذا هو الأصل الذي يجب اعتماده على كل مسلم"[٢].

وقال : "... والزهد قد يكون مع الغنى وقد يكون مع الفقر ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناء كثير والزهد المشروع ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع ..."[٣].

فالزهد الذي هو أساس الطريق إلى الله لا يتنافى عنده مع الغنى ولا مع ما يستعين به السالك على ضروريات الحياة فالزهد عند ابن تيمية ترك الفضول التي تشغل العبد عن مولاه.

والزهد الشرعي عنده أيضاً هو ما أدى بصاحبه إلى العمل والسعي والاكتساب وإنفاق الكثير من المال في سبيل الله عز وجل.

قال ابن تيمية :" أهل العلم يقولون أزهد الناس بعد رسول الله – ﷺ – : الزهد الشرعي: أبو بكر وعمر وذلك أن أبا بكر كان

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل جـ١ صـ٢٢٤ – ٢٢٥.

(٢) نفسه جـ١ صـ٢٢٥ .

(٣) نفسه جـ١ صـ٢٢٦.

له مال يكسبه فأنفقه كله في سبيل الله وتولى الخلافة فذهب إلى السوق يبيع ويكتسب"[١].

وعن محبة الله تعالى التي هي أهم أحوال الصوفية قال ابن تيمية: "اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة وأهل المعرفة أن الله نفسه يحب ويحب ... ومن قال إن المراد بمحبة الله محبة التقرب إليه فقوله متناقض فإن محبة التقرب إليه تبع لمحبته فمن أحب الله نفسه أحب التقرب إليه ومن كان لا يحبه نفسه امتنع أن يحب التقرب إليه وأما من كان لا يطيعه ولا يتمثل أمره إلا لأجل غرض أخر فهو في الحقيقة إنما يحب ذلك الغرض الذي عمل لأجله وقد جعل طاعة الله وسيلة إليه"[٢].

فالمحبة لله التي هي أهم أحوال الصوفية مقصودة لذاتها عند ابن تيمية وطاعة الله تعالى والتقرب إليه بالعبادات هي نتيجة لهذه المحبة وهؤلاء غايتهم محبة النظر إلى وجه الله تعالى في الآخرة: "فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهو الزيادة فأخبر أن النظر إليه أحب إليهم من كل ما يتنعمون فيه ومحبة النظر إليه تبع لمحبته فإنما أحبوا النظر إليه لمحبتهم إياه..."[٣].

ويقرر ابن تيمية أن العبادات المشروعة هي طريق أهل التصوف الحق فيقول: "فالمشروع هو الذي يتقرب به إلى الله تعالى وهو سبيل الله وهو البر والطاعة والحسنات والخير والمعروف وهو

---

(١) منهاج النبوية جـ٤ صـ١٢٩.

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل جـ٥ صـ٣٣٤ – ٣٣٥.

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل جـ٥ صـ٢٤٥.

طريق السالكين ومنهاج القاصدين والعابدين وهو الذي يسلكه كل من أراد الله وسلك طريق الزهد والعبادة وما يسمى بالفقر والتصوف ونحو ذلك"(١).

وقال :"فلم يبق طريق الله إلا اتباع محمد – ﷺ – فما أمر به من العبادات أمر إيجاب أو استحباب فهو مشروع وما رغب فيه وذكر ثوابه وفضله ولا يجوز أن يقال إن هذا مستحب أو مشروع إلا بدليل شرعي ولا يجوز أن يثبت شريعة بحديث ضعيف لكن إذا ثبت أن العمل مستحب بدليل شرعي وروى له فضائل بأسانيد ضعيفة جاز أن تروى إذا لم يعمل أنها كذب وذلك أن مقادير الثواب غير معلومة فإذا روى في مقدار الثواب حديث لا يعرف أنه كذب لم يجز أن يكذب به وهذا هو الذي كان للإمام أحمد بن حنبل وغيره يرخصون فيه وفي روايات أحاديث الفضائل وأما أن يثبتوا أن هذا عمل مستحب مشروع بحديث ضعيف فحاشى لله"(٢).

فابن تيمية يشير إلى أن العبادات المشروعة والتي هي طريق أهل التصوف الحق تكون في حدود القصد والاعتدال واتباع ما جاء به الرسول – ﷺ – .

ومن كل ما تقدم نعلم أن ابن تيمية قد أشاد ببعض القضايا الهامة في التصوف ومنها قضية (المقامات والأحوال) التي تتصل بحقيقة التصوف اتصالاً وثيقاً.

كما أن ابن تيمية قد سلم بحصول المكاشفات والإلهامات للصادقين من الصوفية ويستدل عليها بالعديد من النصوص(٣).

---

(١) نفسه جـ٥ صـ٢٤٥.

(٢) نفسه جـ٥ صـ٢٥٩ – ٢٦٠ .

(٣) أنظر : مجموعة الرسائل والمسائل.

والذي يهمنا هو بيان قبول ابن تيمية للمقامات والأحوال حيث سلم للصوفية المحققين بطرقهم وأحوالهم واستنادها إلى الأدلة الشرعية.

لكن من المهم الإشارة إلى أن ابن تيمية وإن كان قد سلم ببعض القضايا – كما أشرنا – إلا أنه قد رفض بعض المسائل المتصلة بالتصوف.

ونقد ابن تيمية للصوفية إنما كان يرجع إلى مبالغة بعضهم في بعض المسائل كالزهد وادعاء المحبة لله وعدم الحرص على اتباع الرسول – ﷺ – فيما أمر ونهى.

فنقد ابن تيمية ناتج عن ما لاحظه على بعض متأخري الصوفية من مبالغات وانحرافات فأراد بنقده تقويم ما آل إليه أمر أدعياء التصوف وانحرافهم عن الشريعة وهو محق في ذلك.

فبالرغم من ان ابن تيمية قد أثار بعض الاعتراضات حول بعض المسائل التي تناولها الصوفية إلا أنه مع هذا قد اتفق مع أئمتهم في العديد من القضايا – كما ذكرنا – .

فهو لم ينكر أي قضية من القضايا إذا ما كانت على نحو من الفهم الصحيح وتتفق مع توجيهات الشريعة وآدابها كما رأينا تسليمه للصوفية المحققين بما أوردوه من مقامات وأحوال تستند إلى أدلة شرعية.



□

الخاتمة

وبعد فقد عرضت للمقامات والأحوال عند الصوفية من حيث مفهومها

- في اللغة .
- في القرآن الكريم
- في اصطلاحات الصوفية.

فمن بين ألفاظ الصوفية واصطلاحاتهم التي اختصوا بها دون غيرهم لفظ : (المقام) و (الحال) .

- فقد اجتهد الصوفية في تحديد مفهوم المقام والحال وحاولت إبراز جوانب اختلافهم حول المقامات والأحوال فالناظر في مقامات الصوفية وأحوالهم يجد أن التشابه والتداخل بينهما قد أدى إلى اختلاف بعض الصوفية حولها وقد عرضت بعض مظاهر هذا الاختلاف الذي جاء على النحو التالي:
- من حيث العدد والترتيب :

- من حيث الفرق بينهما من ناحية الدوام وعدمه والاكتساب وعدمه.

من حيث تحديد المقامات والأحوال فما يراه بعضهم حالاً يراه البعض الآخر مقاماً وهكذا .

ثم عقبت على هذا الاختلاف ببيان أسبابه ودوافعه.

وأخيراً عرضت للمقامات والأحوال من حيث الرفض والقبول.

وقدمت نماذج لنقود بعض العلماء للمقامات والأحوال ثم اتبعتها بنماذج أخرى لقبول المقامات والأحوال والإشادة بهما.

ولعلي بهذا الجهد المتواضع أكون قد أسهمت بإلقاء الضوء على المقامات والأحوال عند الصوفية من حيث مفهومها والاختلاف حولها وموقف العلماء منها رفضاً وقبولاً.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يتقبل عملي هذا وأن يجعله نافعاً وخالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير.

﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[١]

* * *

(١) سورة الصافات ١٨٠ – ١٨٢.